الجنس والحضارة

للأستاذ عبد العزيز جادو

لقد كان قليلا ذلك الذى فهمناه عن اللاشعور وصلته بالأحلام ، وعن الجنس وظواهره العقلية العجيبة قبل أن يبدأ سيجموند فرويد عمله العظيم . فلقد أوضحت دراسة التطور العلاقات التى بين كل المخلوقات الحية ، وتماثل البناء التشريحى بين كثير من الأجناس . ولا يزال علم السيكولوجيا يعوزه بعض استكشافات لتوطد أركانه نهائياً على أساس ثابت من قانون ؛ وليتتبع النمو التدريجى للعقل من بسيط إلى مركب .

ومما يجدر بالذكر أن الدكتور بريور De Breuer الذى عمل معه فرويد أول الأمر فى « العلاجات الناطقة » " Talking treatments " لاحظ بعض أعراض شاذة فى حالة امرأة شابة عزاها إلى الهستيريا . وعجز عن إزالة هذه الأعراض باستخدام التنويم المغنطيسى ، الذى كان يزاول فيما مضى بتوسع أكثر من الآن ، وكان شائعاً إذ ذاك فى صناعة الطب ، وأخذت حالتها تزداد سوءاً . ولاحظ الدكتور بريور أن مريضته فى حالات « ذهولها » تتمتم مع نفسها . فجعلها تكرر الكلمات التى تفوهت بها ، وبهذه الطريقة علل الباعث على الفكر التى تسلطت على عقلها حتى توالدت . وكان الأثر لمنشأ هذه الأوهام والتخيلات التى تسلطت على الفتاة هو فى الواقع وجود « الدوافع المخبوءة » Hidden Motives الشركة فى مظاهر اللاشعور التى تفوق الحصر فى علاقاتها بالحياة اليومية وبالحالات العقلية المرضية .

وعاد فرويد ، الذى كان يدرس فى ذات الوقت على العالم الشهير شاركوت Charcot — إلى ڤينا ليلتقى بالدكتور بريور ، الذى كان يستعمل حينذاك « طريقة المسهل Tathartic Method » . وظهر لفرويد أن بريور لم يفهم تماماً علاقة هذه الطريقة بالسيكولوجيا العلاجية ، فأقنعه بإتمام أبحاثها فى الإجراءات التى ابتكرها حديثاً ، ومع ذلك فقد أضاع بريور بعض حماسته بخصوصها .

ولم تتزعزع ثقة فرويد فى كشفه ولم تفتر همته . فواصلا استقصاءاتها مدة من الزمن تراءى لها فى نهايتها إقامة الدليل على قيمة كشفها ، وانتهيا إلى النتيجة بأن العاطفة المحبوسة فى مريض إذا ما عوقت فى طريقها إلى الإفلات الصريح ، فإنها تتحول إلى أعراض شاذة ، إما فيزيقية وإما عقلية . وبملاحظة مرضاها فى عيادتهما ، وجدا أن الأعراض كثيراً ما يكون لها صلة ببعض حادثات فى حياتهم . وقادهما هذا إلى الاعتقاد بأن الاختبارات المرضية Pathological كانت تتعلق بأخرى قبلها ، وتلك التى كانت قبلها ليست فى حاجة إلى الباثولوجية فى طبيعتها ؛ وأن التجارب التى سبقتها زودت المصادفة الباثولوجية الأخيرة بخلق عقلى . وبعد أن تعاون فرويد وبريور معاً مدة من الزمن فى هذه الملاحظات والتجارب انفصلا أحدهما عن الآخر فقد دب الخلاف إذ لعب الجنس دوره فى تكوين العصاب Neuross . وهكذا مضى فرويد قدماً بمفرده ثم نشر تطبيقاً عملياً من نتاج مجهوده . بسماحه لمريضه أن يتكلم بكل ما يدور بخلده ، وبعد ملاحظة بالغة منتهاها فى الدقة ، اقتنع بأن أى شىء يحدث للمريض له صلة مباشرة أو غير مباشرة (بجرح) ما فى لا شعوره .

وفى عام ١٨٩٥ ألقى فرويد أولى محاضراته عن اكتشافاته ، التى قدر لها أن تكون بشيراً بميلاد التحليل النفسانى . Osycho analysis . ولقد تبعه بادىء الرأى ثلاثة نفر من الوسط الطبى هم أدلر Odler ، وستيكل Stekel ، وسادجر Sadger . ولكن فى سنة ١٩٠٠ بدأ يانج Yung وثلة صغيرة من أتباعه الفيزيقيين ، يستعملون الطريقة الفرويدية بعيادة طب الأمراض العقلية فى زيوريخ . وبعد ثمانية أعوام ، وبناء على دعوة يانج قام أول مؤتمر لمدرسة الفيزيقيين عقد فى سالزبورج .

عند ذلك أخذ الطلبة الجادون ذوو الضمير الحى يدخلون الميدان أفواجاً . وظهرت المؤلفات الفكرية والانتقادية تحمل طابعى مقدرة المدرسة وحية الرائد . ومن ميدان علم النفس الملاجى انتشر علم التحليل النفسانى ، وامتد إلى ميادين علم الأساطير Mythology والحواديت Folk - lore . وبدأت تظهر الشروح التى تعوزها التفسيرات السيكولوجية ، وبدأت تطغى على أساطير الجنس البشرى وخرافاته . واتضح أن رغبات السلالة البشرية التى كانت تتوق إلى الرضى خلال العصور جاء وصفها فى الخرافات والأساطير ، وأنه إذا فهم الشخص المفتاح

السرى الذى يمده به التحليل النفسانى لأمكنه أن يفسر معنى كل تلك القصص القديمة . فقد قال علماء التحليل النفسانى أن عواطف البشر لونها فنان أعمى على لوحة من الفكر .

ومن المعروف قطعاً لدى علماء الأنثربولوجيا أن الرمز لعب دوراً هاماً فى الانتاج البدائى لعقل الإنسان . بل إن طريقتنا اليوم فى التعبير عن الفكر قائمة على أساس صورة من الرمزية ؛ فالمهندس الذى يتصور تجويف مدخنة ، والموسيقى الذى يوفق السيمفونيات السماوية ، والفنان الأديب ، كل أولئك يستعملون الرموز كثيراً . وقد أشار أندريه تريدون André Tridon فى أحد مؤلفاته إلى أن : « لغة جميع الشعوب رمزية ، ودائماً ما يفرض الإنسان فى كلامه مقارنات بين مظاهر ثابتة فى الطبيعة وأجزاء من جسم الإنسان . فنحن نتكلم عن فم النهر أو الكهف ؛ وعن مهاد الأرض أو جوفها أو بطنها ؛ وعن قمة الجبل أو سفحه . ونقول إن فى البطاطس عيوناً ؛ وأن اللون دافئ ، وحقائق جافة ، وأننا نشم رائحة التعب وغير ذلك .

كيف دخلت هذه التعبيرات فى كلامنا ، وكيف سبر علماء التحليل النفسانى صلتها بأسس تفكيرنا ؟ .. لن نحتاج إلى كبير عناء لنعرف أن هناك معنى عميقاً وراء كل هذا اللف فى كلامنا . إن علاقة ما ، ليست معروفة إلى الآن ، كانت متوثقة بين عناصر ثابتة موجودة فى اللغة وهى الفكرة البدائية عند بنى الإنسان .

والإنسان يملك فى داخل نفسه اتجاهين : يوصف أحدهما بالتقارب أو المائل نحو المركز Tentripetal ؛ والآخر بعيد أو منحرف عن المركز Tentrifugal . الأول يميل إلى نقله إلى الأمام ؛ والآخر يظهر رغبة صريحة للرجوع إلى حالة بدائية . ونرى هذا الاتجاه ، مثلا ، فى البناء التشريحى للانسان حيث تتابر أحياناً بعض أعضاء جرثومية ثابتة على النمو ، يشيع التعب العظيم فى الإنسان . ولقد سرد ميشنكوف Metchnikotf فى مؤلفه القيم « طبيعة الإنسان »(١) أمثلة كثيرة عن النشاز الموجود فى تشريح الإنسان ، وهل يمكننا أن نشير إلى «النشاز» فى بنائه العقلى أيضاً ؟ أن نيتشه Nietzsche ، الذى سبق علماء التحليل النفسانى ، تنبأ بكثير من كشوفهم ، فذكر فى أحد مؤلفاته : « فى نومنا ، وفى أحلامنا ، نمر بجميع فكر البشرية القديمة . وأعنى بهذا أن الإنسان يدرك فى أحلامه ما أدركه أثناء حالات اليقظة منذ آلاف السنين . فالحلم يرجع بنا إلى حالات قديمة من التهذيب الإنسانى ، ويقدم لنا الوسيلة لنفهمها بطريقة أجدى وأحسن . أبدى هذه الملاحظة أخيراً علماء النفس المشتغلين بالفروض الحديثة التى أظهرتها نظريات فرويد وحسنتها ، كما أنها الملاحظة قررت ما لهذا الفيلسوف الشهير من بُعد نظر ونفاذ بصيرة .

لايخفى أن لكل شخص دافعاً جنسياً Libido يطالب بإرضاء رغباته . وإذا لم يقدم له هذا الإرضاء بوسيلة سوية فإن الميل إلى الرغبة يكون فى حل من التسرب من أضعف نقطة فى خط التقييد . وإذا لم يتم هذا أيضاً ، فهناك تسليم من العقل لما يسميه علماء التحليل النفسانى بالتعالى أو التسامى . هذا لأن الرغبة تتسرب من خلال قنوات لا يستعملها العقل لمنفعته حين تكون الرغبة قادرة على الإرضاء بطريقة اعتيادية . ومن قوانين الطبيعة أن القوة تميل إلى قهر العوامل المكبوتة فى بيئتها بغض النظر عما تكون عليه هذه العوامل . وليس من قوة فى الطبيعة أعظم ولا أكثر أهمية — حسب الترتيب البيولوجى للأشياء — من الدافع الجنسى .

يقول العالم النفسانى المعروف كوريات Ioriat : « إن الفكر اللاشعورية موجودة وفعّالة فى الفرد العادى كما هى فى المريض بالأعصاب . والفكر اللاشعورية أو الآراء غالباً ما تظل هكذا ، لأن قوة يطلق عليها المقاومة تمنعها من أن تصير شعورية . وعمل الكبت كثيراً ما يلتقى بالفشل وعدم التوفيق ، لأن الدافع المكبوت الرغبات والعقد النفسية تواصل البقاء فى اللاشعور ومن ثم تبعث إلى الشعور بديلا متنكراً فى هيئة أعراض عصابية »(١) . حينما ينقضى النهار وما فيه من مؤثرات ، يدخل الفرد فى دولة النوم ، فتتسلل الرغبات اللاشعورية لتمثل دورها فى هيئة حلم . ولكن هنا ، كما فى حالة اليقظة ، يكون الرقيب متنبهاً يقظاً ، وبالتالى تسدل على المشهد ستار الرمزية لتخفى طبيعة الرغبات الواقعية التى تعلن عن نفسها .

وفى هذا الصدد كتب أحد تلامذة فرويد التقدير الآتى : « إن الرقيب هو الذى يجبر الأحلام على اتخاذ لغة الرمزية الغامضة لكى يكفل إمكان ترتيب رواية المادة الجنسية فى الأحلام . فإذا أقنع الشخص نفسه بفائدة الرمزية العظيمة فى ترتيب رواية المادة الجنسية فى الأحلام ، لابد أن يصطدم بالسؤال عما إذا كان

(١) The Nature fo Man

(١) Hbnormal Psychology P . 18

كثير من هذه الرموز تبدو كأنها حروف اختزال بمعنى ثابت لكل الحالات . ويجب أن نلاحظ بهذه المناسبة أن هذه الرمزية لا تتعلق بالأحلام فحسب ، ولكنها تتعلق أيضاً بفكر لا شعورية لأناس ، وإنها لكائنة فى « الحوادث » والأساطير وفى الأمثال السائرة وفى الحكم المأثورة وفى النكات كوجودها فى الأحلام . ومن بين هذه الرموز المستعملة أشياء كثيرة تعنى بانتظام الشئ ذاته ؛ وفوق هذا ، وفى الغالب ، فإن الفهم العام والنشاط الجم إنما يعتمد على عقلية هذه المخلوقات » (١)

ولكل جيل دستوره الخاص بمعاملته وعاداته ، وفكره ، وآدابه ، وقيمه ، الخ .. وهذه كلها تلقى قيودها على الفرد وعلى رغباته . وإذن فكل جيل بنوع ما ، يمكن أن يقال إن له مرتبته اللاشعورية . والجماعة لا تنفك تثير البيئة على الدوام لأن الفرد يضطرها أن تختار وترتب لنفسها المقاييس التى لا يمكن عملها دائماً له ليعيش لها . والفرد إذ يحاط بسور من القمع الذى تسببه الجماعة ، لا يسمح له بالتحدث فى هذا البحث الحيوي بالطريقة الصريحة التى يعالج بها أى موضوع آخر ذى أهمية لوجوده . ولا يخرج الأمر كله عن كونه تحريماً tadoo . ومن هنا ينشأ الإحساس بأنه لابد من وجود شئ قبيح يختص به . وهكذا ترقى المرتبة فى اللاشعور — مرتبة الكبت . وقد تبدو كلها واضحة فى الظاهر . والفرد يدور حول واجبه اليومى ولا يظهر أى أعراض لطبيعته الجنسية . ولكن ، فى أعماق عقله توجد شخصية تختلف تمام الاختلاف عن التى تظهر سطحياً

ولقد أوضحت تقصيات علماء الأمراض العقلية كل هذا بمهارة فائقة . ولوحظ مرة تلو أن السيدات الفضليات اللاتى يعانين هيئة معينة من الانحراف العقلى يتفوهن بسباب عنيف وفحش شديد . والنساء الخليعات ، من جهة أخرى ، اللاتى يعانين نفس هيئة المرض بالذات لا يمكنهن إظهار هذا العرض بالصيغة التى تظهرها أخواتهن الأحسن منهن . والصورة الواضحة للكبت ونتيجته تؤثر على بعض الأنواع .

ودراسة مذهب الروحيين Animism يمدنا بالدليل الأول عن المادة . فالإنسان القديم يعتقد أن له نفساً أو روحاً تحرك حياته على هذه البسيطة . وتنتقل هذه الروح بعد الممات إلى دائرة أو بيئة أخرى لتبقى موجودة ككيان مستقل . وما كان الجسم إلا مجرد مسكن للنفس ، وكان ينظر إليها كمخلوق ممتاز . ولم يكن هناك بالتأكيد أى فهم لتأثير الجسم على العقل كما هو معروف فى هذا الزمن .

ويأتى الإنسان بالتدريج ليكيف نفسه كى تحيط بأشياء لا حياة لها . ويعتقد بأن لكل شىء روحاً . فالريح الصاخبة التى تثور فى الغابات فتحطم كل ما يصادفها فى طريقها لها روح والنسيم العليل الذى يسلم جسمه لنوم مريح فيه روح ولكن الإنسان فى الوقت ذاته يعتقد أن هناك وراء الحياة جميعها تكمن قوة غامضة — التكوين . الجنس — فقد رغباته الجنسية وإحساساته إلى أشيائه المؤلهة . والانفعالات البشرية فى الطبيعة ، كيفما تكن ، كانت محجوبة فوق الآلهة . وبعد مدة من الزمن أصبح الجنس الصيغة الأصلية لعبادة الإنسان وعقيدته . وكان هذا فى حال من الشعور الاجتماعى فى كثير أو قليل من الصفاء . وأصبح الجنس قبيحاً بظهور الحياة المعقدة ، أو كما اصطلح على تسميتها الحضارة . والإنسان المجرد بالنسبة إلى الطبيعة يبدو أقل الأجناس بالنسبة لانحطاط الفكر ولكنه أسماها فى الوظيفة .

والإنسان اللاشعورى يظل مخلوقاً طبيعياً . فهو يعبر عن رغباته سواء سُمح له بذلك أم لم يسمح . والطريقة التى يعبر بها عن ذلك تتوقف على مقدار التحديدات التى تفرضها عليه البيئة . وهو يرى جاذبية سرية لدافعه الجنسى فى أشكال وفى أبنية أشياء كثيرة فى بيئته كما تعود أن يرى حين كان همجياً . وإنه ليختبر صنفاً من الإرضاء الجنسى بتفرسه فيه وترك أفكاره تجول كما تريد . وبعض عوامل البيئة كالقصص الفكهة والصور الفنية التى من طراز معين ، خلقت بصراحة لهذا الميل الذى يميل إليه الإنسان ، وإنها تقدم المنفذ لبعض النماذج المكبوتة .

فالإعلان مثلا له جاذبية على المشاهد أساسها الروابط الجنسية . واعلانات الحائط الكبيرة والرسوم التى تعلن عن المنتجات التجارية ، بمظهرها ذى الرونق الزاهى للنساء نصف عاريات ، يرسم بجلاء ووضوح أن الإنسان سينظر إلى شئ يفتنه جنسياً ، أسرع وأطول مما ينظر إلى أى شئ آخر ليست فيه هذه المزايا . والإنسان يرغب ، بوعى أو بغير وعى ، فى إطالة لذته الجنسية . والدافع الجنسى بفطرته سيتمسك بأى شئ يساعده فى هذا الاتجاه . فهو راقد فى طبيعة الإنسان ذاتها للسعى وراء اللذة والعمل على اجتناب الألم .

(١) Freud's Theories of the Neurosis , P . 105 Dr . Hitchman

وإطالة الحب بوساطة العنصر الروحى أشار إليها الفيلسوف كنت بقوله : « وعلى قدر سرعة الذهن فى النشـاط ، فهو لا يتوانى عن بذل تأثيره أيضـاً فى المحيط الجنسى . وسرعان ما اكتشف الإنسـان أن منبه الجنس Atimulus الذى اعتمد فى الحيوانات على مجرد دافع دورى غالباً ما يكون وقتياً ، كان فى حالته الخاصة مقتدراً على الإطالة ، وفى الغالب على الزيادة والـكثرة بواسطة قوة التخيل [1] » .

ونجد أن الرغبة تتحقق فى شـكل رمزى لا فى الأحلام فقط ، سواء أحلام النوم أو أحلام اليقظة ، ولـكن فى الشعر والموسيقى والفن والأدب ، الخ …

والحياة فى طريقها السريع لتكون أكثر تعقيداً ، وسرعة الحياة الحديثة تجبر الإنسان على تنظيم نشـاطه اليومى بالنسبة للزمن الذى تسمح به بيئته . فمركبات الترام المزدحمة ، والمطاعم ، والملاهى ، والحوانيت ، والشوارع ، تشهد على ازدياد السرعة التى جلبتها الحضارة الحديثة ملايين الأنفس تسير قطعانا ضمن الحدود الضيقة بالمدينة . وهذه الحاجة التى تتطلبها السرعة المجنونة ترقى فى عقولنا هيولية غامضـة chaos . وبلاد اليونان لم تنجب مفكريها العظام إلا لأنها منحت سـكانها وقتاً للراحة ، هذا الوقت الذى يعد من المستلزمات التى لا تقدر قيمتها لـكل نفس فطنة .

وفى أثناء كل هذه السرعة وكل هذا التزاحم ، كيفما يكن ، تعمل الجنسية صامتة على التأثير فى الإنسـان والضغط عليه وإقناعه ، وحثه طوال حياته . ولـكن الإنسـان لا يعير كل هذا أى التفات . فهو جد مشغول بالعوامل الموضوعية فى بيئته ، هذه العوامل التى هي ، بعد كل هذا ، أكثر وضوحاً وأكثر أهمية فى نظره . وفى بعض الأحيان تكشف الجنسية عن نفسها مع نسمات الصيف الرقيقة ، وفى أحيان أخرى ، مع عواصف الشتاء الهوجاء . ولـكننا فى كل الحالات نتعامل مع المادة نفسها — الليبدو . وأعمال الليبدو لا تخضع للتأثير مع مرور الزمن . هذا التأثير الذى أصبحنا نعرفه الآن وندريه بواسطة استقصاءاتنا السيكولوجية .

عبد العزيز جادو

(١) The Probable Beginning of Human History Published in 1786

الذين جنوا علينـــــا

الذين جنوا علينا … فبذروا فى طبعنا الحرمان ، وغرسوا فى قلبنا الألم ، وأقاموا حياتنا على دعائم من الشك اليائس ، والحيرة المضنية ، والفـكر الحزين ، والحـب المشئوم … بيت ومدرسة وتقاليد ! فى أرجاء البيت ، تحكم الوالد … فمنع النافع ، وأجاز الضار؛ وفى حلقة الدرس ، أفلس الأستاذ … فدرس الغث وترك المفيد ، وعنى بالقشور وأهمـل اللباب ، وفى جحيم البيئة ، تسلطت التقاليد … ففرضت الحياء ، وأكسبت الجـبن ، والتواكل ، وراضتنا على خلق العبيد !

ومن ثم ، فلم يكن أمل فى ابتكار ، ولم يعد رجاء فى انتظار ، وأرواحنا ظمأى إلى المعرفة حنانة إلى الثقافة ، عطشى إلى الجمال ، يمتعها البيان العالى ، ويشجيها الأسلوب الرصين ، ويطربها اللحن البديع ، فتندفع فى غير تحفظ ، وتسرع فى غير اعتدال ، لتلحق ركب الفن والأدب ، والحب والخير ، علهـا تصيب من ثمار الأذهان مفيداً ، ومن قرائح العباقرة جديداً ، يؤهلها لأن تدرك وجودها فى الحياة … وما عاش فاقد المعرفة ، وما خلق صدىء الشاعر ، وما تمتع بليد الأحساس ، وليس جدير بالبقاء ، حى لا تختلط ذرات الحب الأسمى ، بدمائه وقلبه ، وأهازيجه وأفكاره حتى ذلك الحيوان الأعجم !

تلك هى محنـة الشباب الأبى ، فى عصرنا الحر ، حرمان رهيب عنيف ، يتلاشى مع الزمن ، أو يتحطم مع العصيان ، فتنطلق الغرائز على سجيتها متطرفة ، ويستجيب الفرد لشهواته طائعاً ، ويجد اللذة فى أن يركب رأسه ، فـلا يسمع من أبويه نصيحة ، ولا يطيع لأستاذه رأيا ، ثم يدفع الثمن أجراً غاليـاً ، من ثقافته وجهده ، ومن صحتـه وسمعته ، وعلى حساب مستقبله وكرامته ، ويذهب ضحية بريئة ، لأخطاء جسيمة ، وتوارثناها فيما خلف لنـا الماضى البعيد ، من جهالة وخرافة ، ومن نحن وازراء ! أيها الآباء المشفقون على أبنائـكم ، والأساتذة المحبون لتلاميذهم … لن يقيم هـذا العوج ، قانون يسنه البرلـان ، ولا سلطة يمنحها الناظر ، ولا شدة يطبقها الوالد ، ولن يصلح الخلل فى معاهدنا ، والضعف فى السنتنا ، والغثاثة فى ثقافتنا ، إلا تربية قويمة ، وتنشئة مستقلة ، وتعاون بين البيت والمعهد ، وثقة بين الوالد والمربى وحرية للابن أن يعبر عما يريد ، وأن يعالج ما يجب !